

أثر أنطون سعادة في تيار الحداثة الشعرية

سيد حسين هاشمي*

تاريخ الوصول: ٩٣/١/١٤

تاريخ القبول: ٩٣/٥/٧

الملخص

مع أنطون سعادة ازدهر الأدب ذو النزعة السياسية الواضحة، فتحول من الحماسة الفارغة، ومن النداء الخطابي الوطني العام، الغامض، إلى رسالة أدبية ملتزمة تدافع عن قضية الأمة، قال أنطون كرم: «انسرى في أدب الحاملين لواءها (قضايا النضال) روح استقلالي، ظلّت شعلته مستمرة اللهب، ينطلق من الحزب السوري القومي بزعامة أنطون سعادة» (كرم، ١٩٨٠م: ٢٧). وكان أنطون سعادة من شرع يسهم في الكفاح الأدبي ولاسيما في حزبه أي الحزب السوري القومي، مؤكداً بأن النهضة، في سوريا تستمد روحها من مواهب الأمة. وفي زعامته، انخرطوا كثيراً من الشعراء أمثال أدونيس، ويوسف الخال، خليل الحاوي أي الحداثيون في حزبه، موالياً لحركة الحزب وأهدافه خاصة في ما يتعلق بالأدب. ومن هذا المنطلق، نعالج أثر أنطون سعادة في ادباء عصره.

الكلمات الدلالية: أنطون سعادة، الحداثة، الحزب السوري القومي، المثلث التموزي.

المقدمة

ما أن الحديث عن *أنطون سعادة* مختصر وأود المرور بكل أفكاره، كإشارات وعناوين تدل أكثر منها تحيط فإنني أستعجل نفسي للوصول إلى أثر *أنطون سعادة* في أدب وأدباء عصره وامتداد هذا الأثر إلى كل الأدب العربي لا الأدب المشرقي فحسب؛ وسواء علم الأدباء في العالم العربي ذلك أو لم يعلموا فإنهم يعلمون ويدركون تيارات الشعر، خاصة التي انتشرت في الأدب العربي من خلال تلاميذ مدرسة *سعادة الشعراء (على أحمد سعيد)* واسمه الذي اختار من خلال تأثره بفكر *سعادة (أدونيس)*، *يوسف الخال*، *خليل حاوي*، *يوسف أبي شقرا*، *نذير العظمة*، *كمال خير بك* واسمه الذي اختار أيضا من خلال تأثره بفكر *سعادة (قدموس)*، *محمد الماغوط*، *فؤاد سليمان* واسمه الذي اختار من خلال تأثره بفكر *سعادة (تموز)*، *محمد يوسف حمود*، وكذلك ما سمى بالشعراء (التموزيين) ومن يردفهم في النقد *خالدة سعيد* التي قدمت أهم شاعرين من شعراء قصيدة النثر، ودافعت عن هذا الجنس الشعري بتقديمها النقدي لمحمد الماغوط، وأنسى الحاج.

من المفيد أن نتحدث في كلام مختصر ومفيد عن صاحب العقيدة القومية الإجتماعية ومدرسته الفكرية، هذه المدرسة الفكرية، كما وصفها الشهيد القائد *كمال جنبلاط* في معرض إستجوابه التاريخي للحكومة اللبنانية حول إستشهاد *سعادة* عام ١٩٤٩ إذ قال آنذاك: «إن *سعادة* هو رجل عقيدة ومؤسس مدرسة فكرية كبرى وباعث نهضة في أنحاء الشرق قد يندر لها مثيل».

إهتم *سعادة* بالأدب والقضية الأدبية في سورية وذلك لأن الأدب يشكل إحدى ركائز النهضة القومية التي أرادها لمجتمعها. وخلال إنشغاله في هذا الميدان إضطر إلى أن يتناول بالنقد والتحليل أعمال كبار أدباء زمانه وشعرائه، وذلك لما رأى في أعمالهم من تقليد وفوضى وعدم إبداع ومن أدب ذليل وعقائد مسممة للنفوس لابد من مواجهتها من منطلق المصلحة العامة للمجتمع لأنها تمثل عقلية الإنحطاط والسفول والأنانية.

هذا الأدب الجديد الذي دعا إليه *سعادة* لكي يتحقق النهوض للشعب كله هو أدب الحياة الذي تكمن فيه عوامل التجديد، وتنبع منه رؤى جديدة تسير بنا إلى تحقيق الحياة الجميلة والسامية التي نطمح إليها. وبهدف إنتاج هذا الأدب الجديد خاطب *سعادة* جميع شعراء سورية قائلاً: «تعالوا نرفع لهذه الأمة التي تتخبط في الظلمات مشعلاً فيه

نور حقيقتنا وأمل إرادتنا وصحة حياتنا. تعالوا نشيد لأمتنا قصوراً من الحب والحكمة والجمال والأمل بمواد تاريخ أمتنا السورية ومواهبها وفلسفات أساطيرها وتعاليمها المتناولة قضايا الحياة الإنسانية الكبرى... تعالوا نقيم أدباً صحيحاً له اصول حقيقية في نفوسنا وفي تاريخنا. تعالوا نفهم أنفسنا وتاريخنا على ضوء نظرنا الأصلية إلى الحياة والكون والفن. بهذه الطريقة نوجد أدباً حياً جديراً بتقدير العالم وبالخلود». بناءً على ما سبق، نتحدث عن سيرة ذاتية زعيم سعادة، وصولاً إلى أثره العميق والخالد في أدباء أثره.

أنطون سعادة

سيرته الذاتية

ولد أنطون سعادة (١٩٤٩-١٩٠٤) في بلدة «الشوير» في جبل لبنان. كان والده الدكتور خليل سعادة وكانت والدته نايفة نصير خنيسر تلقى علومه الأولى في مدرسة الفير في القاهرة، وبعد وفاة والدته عاد إلى الوطن أي لبنان، انكب على دراسة اللغات (البرتغالية، الألمانية، والروسية). بعدها اتجهت قراءته إلى الفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع والسياسة. ظهرت كتاباته الأولى عندما كان في الثامنة عشرة ونشر عدة مقالات طالب فيها بإنهاء الاحتلال الفرنسي واستقلال سوريا.

حاول عام ١٩٢٥م تأليف حزب لتوحيد أبناء الجالية السورية في البرازيل باسم «الشبيبة الفدائية السورية»، لكنه لم يلاق نجاحاً، وأعاد المحاولة عام (١٩٢٧) فأسس حزب السوريين الأحرار» الذي توقف نشاطه بعد ثلاث سنوات.

في تموز ١٩٣٠م عاد أنطون سعادة إلى الوطن من البرازيل وبدأ بإعطاء دروس في اللغة الألمانية في الجامعة الأميركية في بيروت. وقد حفلت هذه المحاضرات بواكير فكرة القومي الاجتماعي. أسس في تشرين الثاني ١٩٣٨م حزب السوري القومي وكان حزباً سرياً بسبب الظروف الصعبة الناجمة عن الانتداب الفرنسي.

في عام ١٩٣٢ أعاد أنطون سعادة إصدار مجلة «المجلة» في بيروت لتساهم النهضة السورية القومية الاجتماعية التي طرحها، وعلى صفحاتها ظهرت في المشرق العربي، ولأول مرة، دراسات تحليلية لموضوع «الأمة». في حزيران عام ١٩٣٥م، وبعد أن أصبح

انتشار الحزب ملموساً في الأوساط الشبابية والثقافية، أقام سعادة الاجتماع العام الأول رغم سرية الحزب، وفي هذا الاجتماع ألقى خطاباً مكتوباً، وكان من أهم الوثائق الفكرية في العقيدة الحزب القومى، ودليل عمل حركة النهضة القومية التي يهدف إليها الحزب، لكن أصدرت سلطات الانتداب الفرنسي قراراً بسجنه ستة أشهر. خرج من السجن، واعتقلت سلطات الانتداب سعادة عدة مرات لأن مشروع سعادة أصبح يهدد السياسة الاستعمارية الفرنسية بفصل لبنان عن سوريا الكبرى. في عام ١٩٣٨م غادر سعادة الوطن تحت الظرف السياسي القاسية، بعد جلاء القوات الفرنسية عام ١٩٤٦م حاول العودة إلى لبنان عدة مرات، في النهاية وصلت طائرة سعادة إلى بيروت فأصدر الحكومة اللبنانية في أعقاب الاستقبال الكبير مذكرة توقيف بحقه، وكان فعل الحكومة اللبنانية مباشراً، لجأ سعادة على إثرها إلى دمشق. استقبله حسنى الزعيم وبعد شهر، سلمه للسلطات اللبنانية وفق صفقة يوم ٧ تموز (١٩٤٩ م) فحاكمته وأعدمته فجر يوم ٨ تموز (١٩٤٩م).

آراء أنطون سعادة

قبل أن أحدد معالم الطريق الجديد، في مقام الأدب، عند سعادة، أشير إلى واقع الأدب، كما رأى إليه سعادة، في سوريا، ثم أكتشف عن تصوّر سعادة للأدب، كما يحب أن يكون، وفاقاً لفلسفة الحزب، ولحرصه على إنشاء روحية موحدة. لم ينشأ سعادة أو الحزب، إلغاء أنواع الفن الأدبي، ولم يرد أن يصبّ الأدب في قالب واحد لكنه عنى عناية مميزة بالأفكار التي يتناولها الأدب و تكون ذات صفة أساسية، أو فلسفية، عامة؛ تؤثر في نفسية المجتمع (سعادة، ١٩٦٠م: ٧١). و لما بدأ السعادة أن «العصية الأندلسية» ليس لها غرض واضح، أو مذهب أدبي يجمع بين أفرادها، حاول عبر بحثه في الأدب و مهمته، أن يبرز معالم الأدب تحتاج إليه سورية (المصدر نفسه: ٢٠٤-٢٠٥). فكانت خطوته الأولى، إذن تعيين المشكلات التي يُعانيها الأدب كما يلي:

الف) التعميم والغموض والتشويش في حقيقة الأدب ولاسيما الشعر. فالتعميم يحول ذو معرفة الحقيقة الكبرى الأساسية، ويبقى الفكر قلقاً ولا يُساعد العقل الفلسفي على الاطمئنان (سعادة، ١٩٥٥م: ١٣-٢١). لذلك اجتهد سعادة في نقده، كى يرسم طريقه واضحة للخروج من هذه الحالة (المصدر نفسه: ٣٧).

ب) الاقتباس أو الاكتساب من الآداب الأجنبية على ما فيها من مظاهر الانفتاح، لا يمثلان نفسية الشعب السوري مثل «بنت يفتاح» لسعيد عقل و أثرها «التغريبي اليهودي» (سعادة، الآثار الكاملة: ٤٤-٤٦).

ج) أن يكون الأديب أو الشاعر مرآة الجماعات، أو مرآة عصره (ردّ على الرّيحاني وحسين هيكل. فمعنى ذلك، هذا شأن المعلّم، الفيلسوف، الفنّان، القائد الذي يقدر أن يخطّط تاريخاً جديداً لأمتّه، ويضع قواعد عصر جديد لشعبه.

د) سعى الشعراء إلى تصوير الحبّ البربري الذي لم يروضه التمدّن، ولم تقومه الثقافة، ولم ترتفع به النفس، الحب في صورة التقبيل، وطلب الأجساد للأجساد. من هنا ثورة سعادة على قصيدة التقليديّة والغزل المتبذل.

هـ) كل تجديد شكلي، لا يحمل تجديداً في الأساس (فهم جديد للحياة يرفع الأنفس إلى مستوى أعلى). هو من قبيل اللهو الباطل، والذات الزائفة.

و) كل استعانة بالخرافات أو الأساطير الخالية من المغزى الفلسفي.

ي) النزعة الفرديّة في الأدب خطر على النظرة الجديدة إلى الحياة والكون والفن. فقد عدّ سعادة التفكير الذي يجعل الشهرة الشخصية غاية الفكر والعمل في الحياة، أمراً منافياً لروح المتّحد وللروحية القوميّة التي بناها على شعور حيّ جديد.

هذا هي أهم جوانب الضعف في أدبنا كما انكشف لأنطون، المُفكّر الملتزم، والزعيم الروحي الذي رأى الروحية المثالية في الفلسفة القوميّة الاجتماعية. وبناء على ذلك أسقط سعادة ما يتعارض مع موقفه هذا، ليقوم ببناء جديد ركّز أسسه، بكلّ صراحة ووضوح، على مفاهيمه الجديدة المرتبة بالهوية القوميّة، يمكن ايجاز هذه المفاهيم والآراء بالآتي:

أ. ضرورة امتلاك نظرة فلسفيّة تاريخيّة تمنح الأدب عمقاً لا بدّ منه.

ب. طريق القوميّة لا يقود إلى الانحلال الديني ولا إلى مجرد التفكير في هذا الأمر لكنّه يقود حتماً إلى انحلال التعصّب الديني وقيام الاعتصاب القومي محلّه.

ج. أهميّة العودة إلى أساطير سورية وفلسفاتها وثوراتها التي أضاعت العالم.

كان همّ سعادة، من خلال بعث الأساطير، و التأمّل في مضمونها، خلق حالة من الاستمرار بين السوري القديم والسوري القومي الاجتماعي الجديد. في سياق متصل، يقول منيف موسى: «لعلّ أهم ما جاء عند سعادة في الموضوعات الأدبية مسألة الأساطير

وأنّ دعوة سعادة إلى استثمار خيرات الأساطير، فكراً وروحاً، كانت عاملاً مهماً في ظهور ما يسمّى بالشعر التمزوي. قال سعادة: «أهم الأساطير اليونانية، وأهم قصص اليهود الأساسيّة مأخوذ عن أصول سورية» (سعادة، الآثار الكاملة: ٦٠). و أشار سعادة، بقصيدة «طافون» في سوريا، قبل «إلياذة» لهوميروس، وذلك في رأس شمرا (أوغاريت القديمة). أمّا النماذج الأسطورية التي توقف عليها فهي:

١. قصة أدونيس: يقول سعادة: لها مغزى وعلاقة وثيقة بالحياة. في هذه الأسطورة، وغيرها من أساطير رأس شمرا، قرب اللاذقية، حقائق رائعة عن عظمة التخيل السورى في الحياة وقضاياها.

٢. طافون المصطفى: قبل الإلياذة أنشأ المؤلفون الفينيقيون (الكنعانيون). في أغاريت، الملاحم في مغامرات غريبة لبطل أسطوري يدعى (طافون).

٣. إيل: يعنى الإله، أبوالآلهة الكبير جداً يُسمّيه ملك السوم أى «ملك السنّة».

٤. بعل: المقام الأكبر والألد لإيل، الطامح في الملكية المطلقة.

٥. «معط»، و«علين» و«أناة»: «معط» هو رمز الطبيعة المثمرة و «علين» يملك على الغيث والرياح. قتل «معط»، «علين». فجقّف الأرض، وأمست السباع تطوف في المدن. نهضت «عنا» أو «أناة» أخت إله الغيث المقتول، لمحاسبة معط على ما جنت يدها. تأخذ أناة منجلاً لتقتل معط، وتحرق جثته وتذرى بقاياها في الحقول، فيبعث علين ويعود المطر. هكذا، دعا سعادة إلى الاتصال بهذه الكنوز الرومية الثمينة، وإنّ أساطير الخصب والنهوض شغلت سعادة وجميع الشعراء الذين تأثروه (ابوفاضل، أنطون سعادة الناقد والأديب المهجرى: ٢٥٢).

أثر أنطون سعادة في نظرة الحدائين (المثلث التمزوي)

أدونيس وسعادة

يعترف أدونيس، بعد مرور سبع وثلاثين سنة على تركه الحزب السورى القومى، بأنه مدين بشعره وأدبه لأنطون سعادة، قال أدونيس: «إنّ ما يسمّونه أدب الحدائنة ليس غريباً عن روح نهضته، وقواعد الحياة التي وضعتها» (مجلة البناء، العدد ٨٦٣: ١٨).

أهدى *على* / أحمد سعيد ملحمة القومية «ليلة» سنة (١٩٥٥م إلى بنات أمته العاملات لمجد سوريا وعظمتها، ولم يكن عليها لقب *أدونيس*. ثم أهدى مجموعته الأخرى «قالت الأرض» سنة ١٩٥٤م إلى سعادة.

ما إن صدرت «ليلة» حتى تبادل *أدونيس* و أصدقاؤه رسائل في هذا الصدد وجاء في رسائل اعتراف صريح بفضل سعادة على الشعراء، وموضوعاتهم، واشتغال حياتهم بالثقافة، والكتابة، والإبداع. قال *أدونيس*: «إن سعادة مثل آفاقا لامتناهية من السموّ والعظمة، وعبر عن عجزه عن الانطلاق مع هذه الآفاق بدون يد تمسكه بيده ليبدأ الارتقاء. أضاف *أدونيس* أن سعادة رائعة فريدة، وزمن جديد، لم يتفتح جفن التأريخ على مثيله من قبل. وقرر أن معرفة سعادة شرط أساسي لكل خلق وإبداع.

إن هذا الردّ، على إيجازه، كان يتمحور حول نظرة سعادة، ومفاهيمه، وروحانية القضية التي شغلته مدى حياته.

وقد صرّح *أدونيس* يحيا هذه المفاهيم والأسس، ويعطى أمته والعالم، من ضمنها، وهو ملتزم خط سعادة «المعلّم الخالد» كما سمّاه. ولذلك كتب أبحاثه وقصائده في «الجيل الجديد» وغيرها عن الأساطير السورية من هذه القصائد واحدة تُعنى بالزعيم سعادة تحت عنوان ملحمة سعادة:

يا زعيمى و كلُّ حقّ و خير و نوراً من الحياة و ناراً

(مجلة الجيل الجديد، العدد الأوّل: ملحمة سعادة)

وقال عن تمّوز الشهيد:

أمّن الناس أن لبنانَ حىً فى شهيدٍ على الرّمال، قتيلٍ
(أدونيس، ١٩٥٤م: ٦٩-٧٧)

الينابيع الأسطورية والتراث العربى القديم

رأينا أنّ سعادة شاء النهوض بالتهج الأسطورى فى الشعر سعيّاً إلى إعناء روحية الأمة، والاعتناء بها. وهذا ما أقرّ به *أدونيس* فى كتابه «ها أنت أيتها الوقت»، عندما تكلم على الاستمرار الحى لتراث حضارى سومرى، بابلى، كنعانى، يرقى إلى خمسة آلاف سنة، ويعود الفضل فى انبعاثه إلى كتاب سعادة «الصراع الفكرى فى الأدب السورى».

فالنتاج الأدونيسي، من «ليلة» إلى «قالت الأرض» إلى قصائد أولى، ومن بعد فى القصائد المنثورية، فى مجلة «الشعر» هو نتاج الموقف من الموت البطولى الفادى. وخير صورة نراها فى «قالت الأرض» حيث امتزج دم سعادة بدم أدونيس ونهض الربيع تصويراً لتموز:

وكان الحياة تُبعثُ فى موتٍ
أينما سرتْ نشوة، أو دمّ
قيل كونٌ بينى فقيلاً: بلاداً
وتبنى أجيالها فى شهادة
يفرحُ، أو تأثر يُغنى جهاده
جمعت كلُّها، فكانت سعادة
(أدونيس، ١٩٥٤م: ١٠٣)

وقد استخدمت الأسطورة، وما حولها من رموز، لهذه الغايات: البحر، الصليب، إبراهيم فى «البئر المهجورة» هو الضحية، هو الزعيم المقتول، أو المسيح المصلوب. هذه المعالة الرمزية هى الأساس، حيث يقول الشاعر:

حياتى لم تعد شيئاً
ترى موتى هو الشىء

(المصدر نفسه: ٦٥)

يصرخ الشاعر والشاعر هو الزعيم، والزعيم هو المسيح، والمسيح هو التموز: «أين غلبتك يا موت؟!» ويأتى الجواب:

أ عطشانٌ خذِ الصخرة واضربها
أ فى العتمه؟ دحرجها عن القبر

(المصدر نفسه: ٦٥)

هكذا جعل الخال رموز التوراة، متأثراً بسعادة ويمتزج الحضارى بالدينى، بالاجتماعى، بالاسطورى، بالإنسانى فى شعره، ليجسد معاناة الجيل لا يحيا ولا يموت. وفى سياق هذا التوجّه، قال الضلع الثالث لمثلث التموزى أى/الحاوى: «إنّ الأساطير المتمثلة فى التراث الشعبى تُعبّر عن نفسية شعبنا وتطورها خلال التاريخ، أضاف أنّ الرؤيا هى التى تكشف عمّا يمكن فى تلك الأساطير من معان إنسانية. إنّ قراءة شعر حاوى تُنبئ بمدى تشربّه روحية سعادة ففى قصيدته «أدونيس والمسيح» التى كتبها عام ١٩٥٢م، اتحاد عضوىّ بالينابيع الأصلية التى كانت مصدر نهضة عريقة، ومصدر أفكار الزعيم سعادة:

أدونيسُ يرتمى فى الليل

شِلْواً غَالَهُ الْوَحْشُ الْجَمُوحَ
وَالْمَسِيحُ
ذَنْبُهُ أَنْ الذَّرَى الْبِيضَاءَ فِي عَيْنَيْهِ
يَعِيَا دُونَهَا الْفِكْرُ الْكَسِيحُ

(الحاوي: ٣٣٢)

وفي هذه الحالات، لا يقف حاوي على حدود المعرفة بل يعاني مأساة كونية هراع الوحش وأدونيس، وروما، والمسيح، وسقراط و الشر. ويمكننا القول إنه لم يسبق «أن ولجت جدلية أدونيس والمسيح في الشعر بمثل هذا الزخم والعنف والعضوية، والنمو الداخلي». زد أن الحاوي في قصيدته «يهوه» نفر من إله الدماء ومال إلى إله الرحمة، كما هو الحال عند أدونيس والخال بناءً على تعاليم الزعيم سعادة، وأفكاره، حيث يقول:

يا إله الخصب، يا بعلاً يفضّ
التربة العاقر
يا إلهاً ينفض القبر
يا شمس الحصيد
أنت يا تموز، يا شمس الحصيد
نجنا نجّ عروق الأرض
من عقم دهاها ودهانا
أدفي الموتى الحزاني

(الحاوي، الديوان: ٩٠-٨٩)

وأما في ما يتعلق بالتراث، فرأينا أن سعادة أعجب بأبي العلاء وأبي نواس وجبران وغيرهم، ولئن لم يتوسع في تسويغ إعجابه، فإنه لفت أنظار المتذوقين، في مدرسته، إلى أهمية التغيير في الموقف والرؤيا لدى الشعراء موضوع الإعجاب. في هذا المقام، دعا أدونيس إلى ضرورة حماية المجددين المبتكرين في مجتمع تطغى عليه نزعة التقليد وبناءً على فكرة الزعيم، أشار إلى أبي نواس الذي رفض أن يكتب بالطريقة التي سبقته،

وسخر منها، ورأى في تمرّد هذا الشاعر على عمود الشعر العربي جذوراً للتمرد الحديث. فالتجليات الأولى للحدائثة تكشف في شعر *أبي نواس*. هكذا بدأ *أبو العلاء* بالنسبة إلى *أدونيس* عالماً وحده، متأثراً بتعاليم *سعادة*، لا يتميز عن تقدّمه من الشعرا وحسب، بل يتميز كذلك عن معاصريه حيث يقول: «كان برجاً يرتفع وحيداً عاليًا، في مفازة البشر، وفي الجهات كلّها يرى ويتلأأ» (*أدونيس*، ١٩٧٠م: ٦٤).

وأما *يوسف الخال* في هذا السياق، متأثراً بالزعيم *سعادة*، فقال: «ذكر *أبي نواس* إلى جانب شكسبير في كلامه على التراث الأنساني والحدائثة». وأيضاً قال: «في الشعر كنت أتعلّق بكلّ من أجد لديه نفحته جديدة كـ *أبي نواس*، و*جبران*، وغيرهما». ولا يقلّ *حاوي* حماسة عن رفيقيه الشاعرين في التغنى بـ *أبي العلاء*، و*جبران*، و*أبي نواس*، فالمعري أدرك أن الشاعر قد يداني بحدسه حدس النبوة. وقد طالما ردّد *حاوي* على مسمعي ثلاثة أبيات لـ *أبي العلاء* كانت نافذة لتفجير همومه:

فؤادك خفاق و برقك خافق	وأعياك في الدنيا خليلٌ موافقٌ
تخيرٌ فإما وحدة مثل ميّنة	وإمّا جليسٌ في الحياة مُنافقٌ
أردت رفيقاً كي ينالك رفقه	فدغّه إذا لم تأت منه المرافقُ

(حاوي، مع خليل حاوي: ٤٢٥)

النظرة الصوفيّة إلى الأرض وأمّ الوطن

بقي أن نتوقف على الأرض، وحال العشق لدى المثلث التموزي على أساس فكرة الزعيم *سعادة* عندهم. فكما نظر *سعادة* إلى بلاده السّورية نظرة متصوّف عاشق، يحيا بحياتها ويموت بموتها، هكذا وجدنا لدى المتأثرين به حالة وطنية عبّرت عن ذاتها. رأى *سعادة* أنّ الكنعانيين الفينيقيين الذين نزلوا على الساحل، أمام لبنان، كانوا أولّ شعب تمشى على قاعدة محبّة الوطن. وبناء على هذه الروحيّة، امتدح *سعادة* الحنين إلى الوطن وخصّ الأرض بفضل مستقل في «نشوء الأمم» مرّكزاً في أهميتها للحياة، وفي تأثيرها الفاعل حيث يقول: «فلا بشر حيث لا أرض، ولا جماعة حيث لا بيئة، ولا تاريخ حيث لا جماعة».

إنَّ هذا التّوجّه جعل التجارب الشعريّة «للمثلث التموزي» تتمحور حول الأرض وتعشق الأرض، وما يرمز إليها من كلمات الوطن، والبلاد والأمة والتّراب. ولم يقف الأمر لدى الشعراء والأدباء أتباع سعادة، على التموزيين وحدهم، بل ألوف لا يمكن حصرهم، وجميعهم يرقصون على إيقاع سمفونيات سعادة، في مجال العناء الوطني والقومي. قال أدونيس معبّراً عن هذا المناخ، في قصيدته «أرض بلادي»:

أرضُ بلادي... كنتُ في وِعيها
وكنت نجواها وأعماقها
أبدوّها، أعيدها في دمي
وفي فمي
أرض بلادي قصّة لم تزل
تقلبُ كفّ الكون أوراقها
آفاقها، تفتحُ آفاقها

(أدونيس، ١٩٨٨م: ٨٩)

ثم كتب «قالت الأرض»، وهذا الديوان، ليس ملحمة سعادة وحده بل ملحمة سعادة والأرض:

بي جوع إلى الجمال ومن صدري
كان الهوى، وكان الجمالُ
أنا سوّيتُ من عروقيّ أبنائي
وربّيتهم ذريّ وجبالا

(أدونيس، قالت الأرض: ٢١-١٩)

وفي لمحة صوفيّة يتحوّل الشّاعر نفسه إلى أرض يعير حاضراً في كيانه كما حضرت في كيانه:

هل أيقنتُ عيناكُ
أنك أنت الأرض

فغنائية الأرض من «ليلة» إلى «قالت الأرض» إلى مهيار/الدمشقي وأغانية كلّها متّصل بجذور سعادة مع ما فيه من اختلاف:

كلّما افتترّ في فلسطين لحنٌ
وردّدته الأمواجُ في أرواد

(أدونيس، قصيدة ليلة: ٢٥)

و في قصيدته «المواكب»:
أمّتي هيّا بنا
ملعبُ الشّمس لنا
كم رَفَعْنَا عَلَمًا
و بنينا أممًا

(المصدر نفسه: ٨٩)

فليس مفاجأة أن يستنتج أحدا لباحثين: «أنّ في «الحرّيّة»، قصائد ذات توجّه قومي،
ونفساً مستمدّاً من روحية تعاليم سعادة والحزب».
وأما في ما يتعلق بالحاوي، فقال /إيليا حاوي: «أنّه أعاد الشّعْر إلى ينبوعه الأوّل
والأخير، النفس والحياة والوجود، والموت، والشعب، والخضب، وإنّ عروق الأرض الغائرة هي
التي مستمرُّ أبداً»:

شهوة للشّمس، للعيث المعنى
للبدارِ الحيّ، للغلّة في قبوٍ ودنّ
شهوةٌ خضراءُ تأبى أن تبيد

(الحاوي، الديوان: ٩٤)

وهذه التّجربة حيّة في «بعد الجليد»، حيث «رعشة الموت» وحيث عروق الأرض
تموت، وحيث الغنائية الراقية التي تُصلّي كي تنفذ عروق الأرض حيث يقول:

رُدّتني ربّي ألى أرضي
أعد لي للحياة

(المصدر نفسه: ١٠٢)

ولمّا جذبته الغربية، وبعد أن كان صرّخ في «بعد الجليد»:
يا حنين الأرض لا تقسُ علينا
أضاف وهو في الغربية:

بى حنين لعبير الأرضِ
للعصفور عند الصبح، للنَّبع المغنَّى
لشباب وصبايا
من كنوز الشَّمس، من ثلج الجبالُ

(المصدر نفسه: ١٠٣-١٠٤)

ومع ذلك فلا علاقة العضوية الصوفية بالأرض كانت قدراً لا تفلت منه في تجربة حاوي،
على أساس موقف الزعيم سعادة، قال حاوي:

أحببت، لا
مازال حبي وقود
تحديقها الرؤيا بعيني دُخانا
ما لها وجودُ
وسوف يأتي زمنٌ أحتضنُ
الأرضَ وأجلو صدرها
وأمسح الحدود

(المصدر نفسه: ١٦٩)

مات و هو يغنى الأرض الأم:
جولى سبايا الأرضِ
فى أرضى
وصولى، وأطحنى شعبي
أطحنى صلبى
لن يكتوى قلبى
قلبى الأصمُّ الأخرسُ الأعمى

(المصدر نفسه: ٦٠٣)

وفى سياق متصل، قال يوسف الخال:
بلادى رفات الجدودُ

وحيث يحلّ الجودُ
وبذلُ الفِدا
نُفدٌ يكِ يومِ الونى
و نبنيكِ فوقِ الدُّنى
منارَ هُدى

وله قصائد في حقل الوطنية، أبرزها، «هذه الأرض لي» و«الحرية»، «شعاع»، «الفجر الجديد» وغيرها. فكشف من خلالها صورة لبنان الثقافية والإفتاح، ملجأ الأحرار، وفي التغنى بنعمة الحرية، مازجاً بروح المسيح، بفكر سعادة:

أنا حرٌّ يا ربَّ ما أنت حدٌّ
ما وجودى ترى إذا كنت عيِّداً
شيمةُ الحرِّ أن يُروضَ أحراراً
ويأبى إلا التحرُّرَ مَبْدأ

نتيجة البحث

إنَّ الكلام على أثر سعادة في تيار الحداثة الشعرى يبقى دائماً بداية. فمن الصعب الاكتفاء ببضع صفحات لأضاءة هذا الموضوع وللكشف عن جذور الأعجوبة التي صنعها سعادة. كان سعادة محطة متميِّزة في تأريخنا، وفي وجداننا، كانت دعوته إلى التجديد، من ضمن الروحية القومية.

إنَّ حاوى، وأدونيس والخال قد استمدّوا جوهر تجارتهم، وطبيعة مواقفهم، وأنماط لغتهم، وآفاق رؤاهم، من فكر سعادة. فهو حدّد لهم الموضوعات، وخلق لهم المعجم اللغوى، ومنهم النفس الملحميَّ وأوحى إليهم بمواقف من التّراثيين الثقافيين الغربى والعربى. وهو الذى ألح على أهمية الفكر والفلسفة فى الشعر محارباً السطحية والعقم. وهو الذى نهض، فى مخيالاتهم بالماضى الأسطورى، متمسكاً بالقومية. وهذا التّيار الذى تطوّر بسرعة، ضمَّ اسم سعادة إلى أسماء القوميين: العربيّة والسورية.

المصادر والمراجع

- أبى فاضل، ربيعة. ١٩٩٢م، أنطون سعادة الناقد والأديب المهجري، بيروت: مكتب الدراسات العلمية.
أدونيس. ١٩٥٤م، قصيدة قالت الأرض، دمشق: المطبعة الهاشمية.
أدونيس. ١٩٥٠م، قالت الأرض (مع مقدمة سعيد تقي الدين)، المطبعة الهاشمية.
أدونيس. ١٩٥٠م، ليلة ملحمة قومية، دمشق: مطبعة ابن زيدون.
أدونيس. ١٩٧٠م، مقدمة للشعر العربي، بيروت: دارالعودة.
أنطون، سعادة. ١٩٩٣م، الدليل إلى العقيدة السورية القومية الاجتماعية، دار الركن للطباعة والنشر.
حاوي، ايليا. ١٩٥٦م، مع خليل حاوي في مسيرة حياته وشعره، بيروت: دار الثقافة.
الحاوي، خليل. ١٩٧٢م، الديوان، بيروت: دارالعودة.
الخان، وليم. ١٩٧٠م، كتب وأدباء، بيروت: منشورات المكتبة العصرية.
الخال، يوسف. ١٩٧٣م، الأعمال الشعرية الكاملة، بيروت: التعاونية اللبنانية للتأليف والنشر.
خيرالله، شوقي. ١٩٩٨، مذاكرات، الجزء الثاني، المركز العلمي.
سعادة، أنطون. ١٩٦٠م، الآثار الكاملة (طريق الأدب)، بيروت.
شريح، محمود. ١٩٩٥م، خليل حاوي وأنطون سعادة، بيروت.
فانوس، وجيه. ١٩١٨م. الرمز الأسطوري وحاوي، الفكر العربي المعاصر.
كرم، غطاس. ١٩٨٠م، ملامح الأدب العربي الحديث، بيروت.
موسى، منيف. ١٩٧٧م، قراءة في فكر سعادة الأدبي وأثره في بعض حركة الشعر المعاصر.
موسى، منيف. ١٩٩٧م، مجلة البناء «ملحق المجلة»، العدد ٨٨.
نزار، ناصيف. ١٩٧٥م، طريق الاستقلال الفلسفي، بيروت دار الطليعة.
يموت، إبراهيم. ١٩٩٨م، الحصاد المر، منشورات الركن.